بين الحضارة والمدنية

علي القريشي

وأزمة العالم اليوم

دار التعارف للمطبوعات

دار الأضواء للمطبوعات

بين الحضارة والمدنية
وأزمة العالم اليوم

علي القريشي

بين الحضارة والمدنية

وأزمة العالم اليوم

دار التعارف للمطبوعات
بيروت - لبنان

١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م

دار التعارف للمطبوعات

بيروت - لبنان

شارع سورية - بناية درويش - الطابق الثالث

⊠ ٨٦٠١ - تلفون : ٢٤٧٢٨٠

« **الحضارة** » و « **المدنية** » كلمتان شائعتـــان تردان في كتابات كثير من المفكرين والكتاب بوعي ذي مفهوم خاطيء أو غير دقيق ، إذ طالما تطوى لفظتي كل منهما تحت معنى واحد ينفي التمايز بينهما مما يجعلهما (على غير حقيقتهما) كلمتين لمعنى واحد •

انه لمن المهم جدا ان نفرق بين هذين المصطلحين وأهمية هذا التفريق ليست اكاديمية بقدر ما هي فكرية وانسانية حيث نظرا لارتباط هذه المسألة بواقـــع الصراع الفكري وصميم حيـــاة الانسان وهمومه المعاصرة ــ التي تكثفت واتسعت عبر الازمة الحضارية الراهنة التي يعانيها العالم اليوم •

ولا تزعم هذه الصفحات لنفسها شيئا اكثر من انها اضاءة .. ثم قراءة سريعة في اوراق الازمة ، واطراقة تأمل بعدها تطلع نحو صيغة تترسم دربا وتستوضح معالم طريق •

الحضارة :

في مفهومها الحقيقي مجموعة قيم وافـكار واخلاقيات ومبادىء ومعتقدات تنبثق عنها جملة مـن النظم والتقاليد والاعراف والسلوكيات المختلفة التي تتجسد في مجتمع أو مجموعة من المجتمعات في مرحلة زمنية معينة .

والحضارة بهذا المعنى تعكس موقفا معينا ازاء الكون والانسان والحياة . فمن فكرة « الثيوقراطية » في تشكيل حضاري معين الى فكرة «الديموقراطية» في تشكيل آخر ، ومن نظرية « الستر » لزي المرأة في الحضارة الاسلامية الى « حرية » الازياء النسائية في الحضارة الغربية ، ومن فكرة «الاقتصاد الحر» في النظام الرأسمالي الى فكرة «الاقتصاد الموجه» في النظام الاشتراكي .

هذا وان لكل حضارة سمات معينة تميزها عن الاخرى ، الا ان هذا لا يمنع الالتقاء والتشابه المفاهيمي والتصوري في أسس من الحضارات . فالفكرة الحسية ــ مثلا ــ التي

تذهب الى ان قوام روعة الحياة وسعادتها يتمثل بالمادة واللذة ، انما هي فكرة قامت عليها حضارات قوم عاد وثمود، كما انها من الاسس التي كانت تقوم عليها الحضارتين الرومانية واليونانية(١) ، وهي واضحة لدى الغربيين في حضاراتهم المعاصرة • والحرية الجنسية كواقع سلوكي وحضاري ، تواجدت لدى قوم لوط والرومان واليونان كتواجدها ــ وبشكل مميز طبعا ــ في ظل الحضارة الغربية •

ان خطوط اللقاء في الحضارات ذات الاسس الروحية قائم ايضا ، فالفن ــ مثلا ــ في عموم هذه الحضارات يرى ان القيمة الصادقة في الحقيقة هو [الله] وما يتعلق به وينبثق عنه •• وما الانسان الا ارادته النافذة في هذه الارض • لذا نرى ان هذا الفن يعكس عن اهتمام بارز بمعاني النبل وقيم الروح والفضيلة ، يعكس ما يطرحه الفن المنبثق عن رؤيا حضارية مادية صرفة ، إذ ان هذا الاخير لا يتوانى في ابراز الجوانب الغريزية وبأوضاعها الشاذة او الانطلاق من منطق الغلبة والجبروت ، إذ لا مانع

---

(١) تفسير التاريخ ــ عبد الحميد صديقي ــ ترجمة كاظم جوادي ــ ص ٣٨ •

لديه من تمجيد الماكر والمغتصب واضفاء صفة الذكاء والبطولة عليهما(١) •

أما المدنية :

ففي حقيقتها ليست جزء من الحضارة او صورة من صورها أو مرادفة لها ـ كما يظن الكثير ، لانها غير مرتبطة جوهريا بأي فكر ، انما ارتباطها يتم مع العقل المجرد ، ويأتي انبثاقها عن ابداعاته التي تتسم بطبيعتها بالاستقلال عن الايديولوجيات الحضارية • فالمدنية هي كل ما يرتبط بوسائل الحياة والمتطلبات المادية التي يحتاجها الانسان في توفير سبل راحته ورفاهه • فهي بعبارة اخرى ، أسلوب العيش ومواده المستعملة ••

هذا والمدنية في حقيقتها ـ ايضا ـ لم تكن وليدة زمن محدد ولا بنت مكان معين ، فقد ساهمت في ظهورها جماعات وشعوب مختلفة • كما ان ظهورها لم يحدث بشكل مفاجيء،

---

(١) لعل في كل من السينما الامريكية والهندية ـ بشكل عام ، تتجلى هذه الرؤيا (الحضارية ـ الفنية) المتباينة ، حيث (المادة) في الاولى و(الروح) في الثانية .

ولمرة واحدة ، بل ان كثيرا من نتاجات وتوصلات العلم المادي الحديث لم يتهيء لها الظهور بأشكالها التي عليها الآن الا بعد عمليات من النمو المطرد المستمد من مواقع مدنية سابقة . صحيح ان اكثر ابداعات العصر ظهرت لاول مرة وعن جهود فردية اكثر الاحيان ، الا ان كثيرا منها لم تكن لتظهر الا بعد جملة من التمهيدات والمعارف والتجارب التي بدأ بها السابقون اللذين نقلوا خلال ذلك الفكرة الاساسية والتجربة الاولية للاحقين الذين استلموا بدورهم سر الاكتشاف وانطلقوا به نحو الابداع والتكامل. ولا ادل على صحة ما نقوله ما هو معروف عن **(المدنية الاسلامية)** التي طالما مهدت وامدت **(المدنية الحديثة)** بالشيء الكثير ، حيث تركت لرجال الثانية النواة والركائز الاساسية في اكثر من علم وموضوع ومجال ، سيما في الطب والكيمياء والجيولوجيا والرياضيات وعلوم الحيوان والنبات والجغرافيا والفلك وغير ذلك من العلوم والمعارف التي اقتبس الغربيون الكثير منها عن طرق الاندلس وجزيرة صقلية والشمال الافريقي .. فقد كان ـ مثلا « وجود ابن الهيثم وجابر وغيرهما ممهدا ولازما لظهور غاليلو ونيوتن ، فلو لم يظهر ابن الهيثم لأضطر نيوتن ان يبدأ من حيث بدأ ابن الهيثم ، ولو لم يظهر جابر بن حيان لبدأ غاليلو من حيث بدأ جابر » كما ان ابن يونس الرياضي مهد لفابيير

في المثلثات حيث يقول العلامة سمث « ولو كانت غاية فابيير تسهيل عمليات الضرب التي تحتوي على الجيوب ، فمن المحتمل ان المعادلة [حاس × حاص = $\frac{1}{2}$ حتا (س ـ ص) ـ $\frac{1}{2}$ حتا (س + ص)] هي التي اوحت اختراع اللوغارتما .. » . يقابل هذا القول ان ابن يونس أول من توصل الى القانون الآتي في المثلثات [حتاس × حاص = $\frac{1}{2}$ حتا (س + ص) + $\frac{1}{2}$ حتا (س ـ ص)] .

هذا وان لاخوان الصفا تدقيقات جيلوجية هامة في تبادل البر والبحر يراها العلماء الاختصاصيون اساسا لتكوين نظرية الصحراء «ليوحنا واتروش . لابل » اما ابو منصور الموفق فهو أول من اظهر فائدة عجينة « باريس » في الجراحة ، وأول من ميّز بين « كربونات الصوديوم » و« كربونات البوتاسيوم » واول من استخدم الجبر الحي في ازالة الشعر من الجلود . اما ابو بكر الرازي فأول من وضع كتاب في طب الاطفال ومارس الطب التجريبي . وابن سينا هو أول من قال ان المعدة تتأثر بالاضطرابات النفسية ، وقد تحدث عن السرطان وكتابه « القانون » قد وصفه « وليام اوسلر » بأنه انجيل الطب ، اضافة لنظرياته الجيلوجية في تكوين الصخور

والجبال والحفريات • كما قد كتب ابن رشد في الصحة الغذائية • أما ابن نفيس فانه يُعد أول مكتشف للدورة الدموية الصغرى ، وقد تكلم البيروني عن النفط والصلب• هذا وان المسلمين هم الذين اكتشفوا القلويات والحموض وبعض العقاقير • وقد حللوا مواد ممالك الطبيعة الثلاث ، وحولوا المعادن السامة الى عقاقير رقيقة مأمونة •

وفي مجال المصنوعات ، فان البوصلة التي أتاحت لـ « كريستوف كولومبس » أن يكتشف امريكا هي احدى مخترعات العرب المسلمين ، كما ان المسلمين قد عرفوا صناعة الورق وتكرير السكر واختراع البارود •• الى غير ذلك(١) مما ابتكرته العقلية الانسانية في الزمن الاسلامي من ادوات وأجهزة وآلات [نعرض عن التحدث عنها كي لا يتشعب الموضوع] •

وحاصل ما نريد قوله هنا ان هذه المدنية ــ وبشهادة علما العصر ومؤرخيه من « ول• ديورانت وستايلتون وجوستاف لوبون وسنجرو وسيديو » وغيرهم قد ادت دورا كبيرا لا يستهان به في خدمة المدنية الاوروبية الحديثة•

---

(١) راجع « علوم المسلمين اساس التقدم العلمي الحديث » ــ جلال مظهر ــ الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ــ العدد (٣٤٧) •

ثم حاصل ما نريد قوله ـ اولا واخيرا ، ان المدنية ليست وليدة زمن معين او شعب معين ، بل انها اشبه ما تكون بالكائن المتنامي يقبل التطور كلما تهيء له المناخ الصحي الباعث في أي بقعة كان او في أي زمان • وهي لم تكن ـ مرة ثانية ، في كثير من نتاجاتها وليد مباشر لبيئة أو عقلية معينة • يؤكـد ذلك ـ وفي عصرنا الحـالي ، انصياعها وتحركها داخل أية حضارة كانت ، ذلك باعتبارها ظاهرة مادية ذات هوية عالمية لا يحددها أي ارتباط ايديولوجي معين ، وتتوالد عمن كان توجهه العبادي لله الواحد أو من كـان توجهه لحيوان كالبقرة او لانسان نظيره على حد سواء •

* * *

ان اية حضارة بامكانها التحكم بالمدنية وتوجيهها الوجهة التي تريد • فالطاقة الذرية ـ كاكتشاف عقلي مدني بمقدور أية حضارة ان تجعلها اداة انعاش نفعي في مجالات الزراعة او تحسين التربة او الصناعة او الطب او تحلية المياه وفي غير ذلك ، كما يكون بمقدورها في عين الوقت ان تحيلها اداة انتكاس ورجوع للانسان والانسانية معا •

فالبراءة ميزة المدنية ، والحضارة هي التي تتحكم فيها تبعا لمنطقها الخاص واتجاهاتها العامة ، فتحولها خيرا ارادت أم شرا •

اذن فالحضارة(١) غير المدنية ، والمدنية غير الحضارة • انما العلاقة الاساسية التي تربط بينهما تنعكس في عملية استغـلال الاولى للثانيـة وكيفيـة استخدامها وتوجيهها ـ كما بيّنـا •

* * *

مثل هذا التحديد بين الحضارة والمدنية لم يكن بائنـا لدى الكثير ، فلطالما نجد الخلط وعدم التفريق بينهما قائما على ساق •

تعريف ديورانت :

فـ «ول ديورانت» مثلا يعطينا في كتابه «قصة الحضارة» تعريفا لمصطلحها يقول فيه : « الحضارة نظام اجتماعي يعين الانسان على الزيادة من انتاجه الثقافي •• وتتكون الحضارة مـن اربعة عنـاصر : المواد الاقتصادية والنظم السياسية

---

(١) والحضارة لغة تعني الاقامة في الحضر ، وتستعمل في اللغة العربية بمقابل البداوة على الاطلاق ، ذلك ان الحضر هو بـلا ريب اكثر تطورا في شكلياتـه التنظيميـة وحياتـه الاجتماعية من التجمعات البدوية . لذلك فان الافكار والقيم والمعتقدات حين تتجسد في واقـع اجتماعي ـ متمـدن في الغالب ـ تتشكل حينذاك الحضارة بشكلها العملي المعروف .

والتقاليد الخلقية ومتابعة العلوم والفنون » (١) •

في مثل هذا التعريف لا يمكن فصل المدنية عن الحضارة، لكن ديورانت في مكان آخر من كتابه المذكور(٢) يفرز المدنية عن دائرة المعنى الحضاري فيقول : « ليست تتوقف المدنية على جنس دون جنس ، فقد تظهر في هذه القارة او تلك ، وقد تنشأ عن هذا اللون من البشرة او ذاك • فقد تنهض في مدينة بكين او دلهي •• في دافنا او لندن •• ليست المدنية وليدة الرجل الانجليزي ولكنه هو صنيعها ، فلو تهيأت لجنس بشري آخر نفس الظروف المادية ألفت نفسها تتوالد عنها » •

ان ديورانت هنا لم يفته المعنى الحقيقي للمدنيـــة ، اذ اعطاه المعنى المتسع ولم يجمده في قالب محدد • فالمدنية كما يراها إذن ، هي تلك التي لا يقتصر ابداعها على جنس دون جنس ولم تحد انطلاقاتها بأقليم دون غيره او قومية دون اخرى • وانه لفهم صائب ولا شك ، كما انه توضيح واسع ودقيق • لكنه ـ وكما عرفنا ـ قد اوسع في معنى الحضارة حين جعلها متضمنة لمعنى المدنية ايضا •

---

(١) قصة الحضارة ـ ص ٣ •

(٢) نفس المصدر السابق ـ ص ٦ •

رأي جورج حنا :

ويقع في المزج نفسه ــ ودونما استدراك ــ الدكتور جورج حنا حين يوجه انتقاده الى الاستاذ «ارنولد توينبي» وذلك بصدد ما يذهب اليه هذا الاخير من ان الدين هو المرتكز الاساس في تكوين الحضارات باعتباره البارق الوضاء للاشراف الالهي فيقول : « الحضارة ليست عبادة ، ولا تنسكا ولا احسانا ، ولا شيئا مثل هذا .. بل هي علم وفن وتقدم ، ومجتمع قائم على العلم والفن والتقدم المادي قبل كل شيء ، الذي ينبثق عنه التقدم الروحي ، وعليه تتوقف الكفاءات لخلق قيم انسانية وحضارية » (١) .

فحنا يرفض العبادة والاحسان ونحوهما كمواضيع حضارية ، لان الحضارة في نظره تقوم ــ في أسسها ، على الجوانب المادية والفنية التي يؤتي ثمارها التقدم العلمي . هنا نرى التوسيع لمعنى الحضارة من جهة والحصر له من الجهة الاخرى ، ففي الحصر نفي للروحيات والاخلاقيات وابعاد لهما عن الدائرة الحضارية ، وفي التوسيع مزج بين الموضوعات الحضارية والموضوعات المدنية . وهذا الوهم الذي يقع فيه الدكتور جورج حنا وليد ما تراه الماركسية

---

(١) الحقيقة الحضارية ــ للدكتور جورج حنا ص ٤٦ .

حين اعتقدت ، وبأسراف ، بأن العامل الاقتصادي وأساليب الانتـــاج وحدهما اللذان يحددان صورة الحيـــاة وقيمها الاجتماعية والخلقية والسياسية وحتى الروحية !

رأي المؤرخ ارنولد توينبي :

وتوينبي يصف الحضارة وصفا اقرب الى الدقة من غيره حين يقول : « انها [أي الحضارة] حصيلة عمل الانسان في الحقل الاجتماعي والمناقبي» (١)• فالنشاطات الاجتماعية المشتملة للاعراف والعادات والقوانين والنظم والموروثات الخلقية والفكرية ، تعتبر في نظره موضوعات حضارية تعبر في انماطها عن مفاهيم وتصورات وركائز فكرية معينة •

راي هانز كوهين والفريد وبير :

وهذا ما يبدو مفهوما لدى هانزكوهن ايضا من خلال حديثه عن الحضارة الشيوعية التي ينتقدها مـــن منظور فكري حين يصفها بالانغلاق والاستبدادية(٢) فهو في هذا الوصف لا ينظر ــ كما يبدو ــ للشيوعية كحضارة تعيش

---

(١) الحقيقة الحضارية ــ ص ٢٨ •

(٢) الحقيقة الحضارية ص ٤٦ •

تحت ظلها المدنية في ارقى تطورها ، انما ينظر اليها فقط كحضارة ذات مرتكزات فكرية واتجاهات سياسية وسلوكية اجتماعية مميزة ..

كذلك العالم الاجتماعي الالماني « Alfred Weber » قد وضع تمييزا واعيا بين الحضارة والمدنية حين « اعتبر [الحضارة] ظاهرة روحيـــة ، وابداعية وحرة . أو هي [المجموعة الحية] في البنية الاجتماعية ، بينما وصـف [المدنية] بكونها ظاهرة عقلية ، وهي تتابع جهد الانسان للسيطرة على المحيط الطبيعي والحضاري عن طريق الذكاء والعلم والصناعة .. » (١) .

ويبدو هذا واضحا ايضا عند **ميشيل عفلق** عنـد حديثه عن التراث والعلمانية بقوله(١) : ان مفهوم العلمانية الذي يعنى به الانفصال عن الدين [ويعني به الاسلام بشكل خاص] امسى عامل تشويه وخنق لانطلاقة الامة عـلى المستوى الحضاري والانساني .. بل يراد به نسيان الامة لتراثها يقابل هذا النسيان ترويج وتعميم للثقافة الغربيـة

---

(١) المشكلات الاجتماعية في حضارة متبدلة ـ للدكتور عبد الجليل الطاهر ـ ص ١٤٣ ـ بغداد ١٩٥٣ .

(١) البعث والتراث ـ ميشيل عفلق ـ ص ٤٩ و٥٠ و٥٩ و٧٤ ـ بغداد ١٩٧٦ .

والحضارة الغربية ، أي انه كان هناك عملية احتيال •

ثم يقول : « لسنا مستعجلين في الامور الاساسية عندما تكون المسألة مسألة ثورة عميقة اصيلة تقدم حضارة جديدة للانسانية •• » « العربي لا بد ان يرجع الى التراث ، لا بد ان يستلهمه امام حضارة هذا العصر، هذه الحضارة العجيبة، وعندما يكون الطموح بعثا حضاريا للامة العربية في هذا العصر ، تعطي فيه امتنا مساهمة جديدة متميزة للحضارة العالمية » •

اذن ليس من الصواب ان تتكلم عن الحضارة والمدنية وكأنهما مفهومان لمعنى واحد ، كما يفعل ديورانت وحنا وغيرهما ، انما الصحيح الذي نعتقده هو ان تتصور دائما ان الحضارة تتعلق بالمعنويات(١) والنظم والمباديء ، كما

---

(١) عندما نعتبر الحضارة مفهوما معنويا مميزا ، فان ذلك لا ينفي وجود اطر وقوالب حضارية تتسم ــ على الرغم من انها من مبتدعات الحضارة الحديثة ــ بالعمومية والمحايدة ، يمكننا ان نطلق عليها بــ « الشكليات الحضارية المحايدة » كشكلية البنوك وبعض الشكليات والطرائق المبتدعة في الادارة والتنظيم كــ «طرائق التحليل الاداري » ومكننة الادارة » ، كذلك بعض المصطلحات السياسية والقانونية وغيرها .

بيئنا آنفا ، وكما رأيناه عند كل من توينبي وهانز كوهن والفريد فيبر .. بينما المدنية تتعلق بالماديات من علم وصناعة واكتشافات .. هذا كما نراه ، هو التميز الصحيح الذي يقينا بالتالي التشويش الفكري الذي يمكن ان ينتج من خلط المعنيين المذكورين .

ومن تمييزنا المذكور نستطيع

ان نخرج بالملاحظة الهامة التالية

ان اية عملية فهم او تقييم لحضارة ما او وزن ما فيها من تقدم وصعود انسانيتين لا تأتي صحيحة عند تعبأة المعطيات المدنية كعنصر اساس في الميزان وجعلها مــن عوامل ثقل الحضارة ورقيها ، لان التقدم المدني ليس وليد الحضارة اساسا ، بل وليد المواهب والملكات والظروف ، وليد العقل البشري والمواد الاولية الميسرة التي تسند العقل وتدفعــه نحو مسارات الاكتشاف والابداع • اما ما تربطه اجهزة الاعلام ــ احيانا ــ في بعض الدول بــين الاعمال العلمية والمدنية وبين أسسها النظرية ليس اكثر من دعاية لا يسندها اساس واقعي او علمي •• أليس مــن الساذج ان ينسب اختراع جرار زراعي منظور او تجبير يد مقطوعة لاحــد مواطني الصين الشعبية لتوجيهات **الرفيق ماوتسي تونغ !؟** **وماو ــ على الرغم من كونه عقلية تغييرية فاعلــة بالنسبة الصينيين ــ لم يكن في يوم من الايام طبيبا او على المام بمبادئ الجراحة والتجبير ، كما لم يكن قــد دخل كلية او معهدا صناعيا تعلم فيه هندسة الجرارات الزراعية ! •**

هذا ومما ينفي توفر العلاقة العضوية المباشرة(١) بين الفكر الحضاري والمانية ما نراه من خلال واقع المدنية المعاصر حيث نرى ان الطيارة والاوركندشن قد توصل اليها **العقل السوفيتي كتوصل العقل الامريكي اليها**، فتواجد تلك النتاجات المادية الواحدة تحت ظل حضارتين متناقضتين [الى حد ما] يعني دون ريب ان المدنية ليست وليدة احداهما، **والا فلو كان الصاروخ هو الوليد العضوي للفكر الماركسي الا يحتمل ان تابى الراسمالية التوسل به عند مساراتها العلمية ؟ !** وهذا أمر خيالي ــ بالطبع، إذ

---

(١) عندما ننفي العلاقة العضوية هنا، نعترف في الوقت نفسه بالدور الخطير الذي تعلبه (الحوافز) التي قد تهيئها حضارة ما في بعث النهضة المدنية . هذا من جهة، ومن جهة اخرى فاننا لا نغفل بأن ثمة (حالات نادرة) يتم فيها الترابط والتمازج بين [الشكل المدني] و [الروحية الحضارية]. فاحواض البول في (التواليت) المنشأة على الطريقة الاوروبية مثلا، لا يمكن ان تنسجم ــ بالرغم من شكليتها المادية الجامدة ــ مع روح الحضارة الاسلامية . كذلك السيارة التي تزين مقدمتها بتمثال حديدي لامراة عارية ــ والذي يعكس روحا حضارية مادية، قد يستبعد، بل لا يمكن وروده في سيارة المصنع الاسلامي على الرغم من هامشية هذه المسالة وتفاهة اثرها . . .

لم يرد في الواقع اصلا ، ذلك ان الصاروخ ظهر وتواجد لدى [المدنية الامريكية] و [المدنية السوفيتية] معا ، دون ان يرتبط تكوينه المادي بحضارة احـد المعسكرين المذكورين ، سيما وان التسابق نحو التطوير والابداع في هذا المجال ، وفي غيره ، جار عندهما دونما توقف .

ومن الملاحظة المتقدمة

نخرج بالحقيقة التالية

ان اي مجتمع مهما قفزت بـه عجلات العلم والتصنيع والاختراع ، وسواء نزل على سطح القمر او الزهرة ، فهو لا يكون بالضرورة مجتمعا سليما تتملكه قيما نبيلة وتقاليد نظيفة وافكار صالحة .. بل ان من الجائز ان يكون العكس هو حال واقعه .

وعلى هذا الاساس يمكن القول ان محاكاة ما تسير عليه بعض المجتمعات من تقاليد وما تحمله من قيم ومباديء وما تطرحه من سلوكيات لمجرد تفوقها المادي والتكنولوجي، أمر فيه من ضئالة الوعي وسوء التقدير الشيء الكثير ، اذ ان مثل هذه المحاكاة اساسا قائمة على عقدة مجاراة القوي والتشبه به .. هذه العقدة التي يساهم في تشكيلها ــ في بعض ما يساهم ــ غياب العمق الفكري ، هذا الغياب الذي يجعل المدنية والحضارة وجهين لعملة واحدة ، فيلصق كل تطور مادي بظهر الحضارة التي تظلله .

ان فهم الحضارة وتقـديرها ــ وبمعزل عـن الجانب

المدني ـ على ضوء من الدرس والتأمل والاستقراء الواعي للاسس التي تشكلها وتصوغ بالتـــالي خطوطها ومواقفها العامة ازاء الكون والانسان والحياة ، هو المنهج الصحيح للتقييم الحضاري وهو النحو الصائب للموازنة بين حضارة واخرى . والا لو كان التقدم العلمي والمادي مبررا كاف للتعلق بالمناهج الحياتية والافكار السائدة في البلاد التي يتألق بها ذلكم التقدم فاننا نسأل :

ماذا يعني هذا التدهور الذي يعانيه الانسان في اوروبا وامريكا ـ على الرغم من سعة عيشه ووسائله ؟ !

وما تفسير تلكم الاستغلالية البشعة التي تمارسها الدول الصناعية الكبرى بحق شعوب العالم الضعيفة التي مـــا فتئت مسروقة القوت مسلوبة الكرامة ؟ !

وعلى من تقع مسؤولية الجرائم والدماء التي تلطخ وجه الارض يوميا عبر اعمال القهر الغاشم الذي ينشب هنـــا وهناك ؟ !

مـــا علة تلكم العنصرية الظلماء التي مارستها النازيـــة (**عرقا**)والولايات المتحدة (**لونا**) والصهيونية (**دينا**)..؟!

ثم هذه المناورات .. والتحركات .. والاقمار والمكاتب

والهيئات التجسسية التي تتآمر على بني الانسان في الرقع الدولية الصغيرة وغير الصغيرة ؟ ! • كذا تقـاسم العالم وبسط النفوذ والتجمعات والاحـلاف وغير ذلك مـن المخططات والغايات التي لا تنوي غير السوء والاستعباد !؟

كل هذا ما سببه ؟ !

بل ما هي العلة في كون الدول المتطورة ماديا والراقيـة تكنولوجيا هي التي تقوم بكل ذلك واليه تسابق ؟ ! !

بأي شيء نفسر هذا الانحدار البشري المفجع•• والمدنية ما فتئت تتفجر في تألـق باهر فوق ساحات هاتك الدول وتحت ظل تلكم الحضارات ؟ ! • اننا حـين نتهم المدنية [الساكنة اصلا] في كل هذا ، فقد جانبنا الصواب حتما ، لان الديناميت او اللاسلكي ـ مثلا ، لا يشكلان بطبيعتهما المجردتين اداتي استعمال فريدتين طالما يكون بالامكان ـ في ذات الوقت ـ ان يستخدما كسبيلين نحو الخير والعطاء ، كما ان السينما ليست بذاتها اداة تدهور ووسيلة انحراف ، لكنما الانسان المتهازل اخلاقيا وحضاريا هو الذي يعكس خلال شاشتها التدهور ويقذف عبر افلامها المفاهيم المريضة التي تضعف ولا تسمن من جوع •

إذن فالمنحى الحضاري هو الواجهــة الجوهرية للرقي ـ أو التخلف ـ الاجتماعي والانساني • وان التقدم المادي والصناعي ليس بقادر على صياغة الحياة الراشدة السعيدة•• كما لا يعتبر العلامة الصعودية للحضارة السائدة •



ازمة الحضارة المعاصرة

وأصوات الرفض

انه على الرغم من ان منجزات المدنية الحديثة قد ازالت الكثير من المتاعب والصعوبات ووفرت الكثير من وسائل الراحة والترف ، يبقى غياب (الحضارة الانسانية الصالحة الرشيدة) عن عالم اليوم علة لكثير من مشاكله الكبرى ومشاغل وهموم اهله الصغيرة والكبيرة التي ما فتئت آخذة بالتكاثف والانتشار ، وسببا لمعظم ظواهر القلق والتمزق التي تجتاح هذا العالم .

صحيح ان تحكم العقل في الآلة واتساع نطاق استعمالات الالكترونات واستخدام الكمبيوترات والتكنيك العالي وغيرها مما وفرته المدنية والعلم الحديث ، أوجد تغييرا بارزا في قيم الانسان وتصوراته وفي حياته وسلوكياته .. الا ان حقيقة هذه التغييرات ـــ وما نتج عنها من ظواهر وتفاعلات على الجوانب الاجتماعية والسياسية والاخلاقية والمادية ، قد تبرعمت ونمت في تربة الحضارة السائدة ، وقد استقت وترعرعت فروعها من المياه الجوفية التي تختزنها الاعماق الحضارية . ان التناقض المريع الذي نشهده اليوم

بين عالم القيم والمثل والتقاليد وبين المقتضيات التكنولوجية ليس وليد مباشر للتقدم الصناعي ـ كما يتصور البعض • صحيح ان الاستلاب والضياع والتمزق الذي يعانيه الفرد المعاصر تأزم وتكثف بعد الانقلاب الصناعي الحديث ، الا ان القيم والمنطلقات الفكرية للحضارة تبقى هي القاعدة الاساسية التي تهيء لمثل هذه التناقضات وتؤدي الى مثل هاتك التأزمات والافرازات ••

لقد كتب سبوران في مقالة له في « المجلة الفرنسية الجديدة » عدد يوليو ١٩٦١ : « ان المدنية تعلمنا كيف تتعلق بالاشياء ، مع ان واجبها هو ان تلقننا فن التخلي عن الاشياء ، لانه لا توجد حرية ولا « حياة حقيقية » بدون تعلم التخلي وعدم الامتلاك ، اني استولي على شيء واحسب نفسي سيدا له ، والواقع اني عبد له ، كما اني عبد ايضا للالة التي اصنعها واديرها » (١) •

الواقع ان المدنية لا تعلمنا هذه الحكمة الانسانية التي يتصورها سبوران ، بل ان الفكر الحضاري (الانساني) هو الذي يعلمنا ذلك ، فانسياق الانسان وراء القيم

---

(١) عالم الفكر ـ المجلد الاول ـ العدد الثاني ١٩٧٠ [الثورة الفكرية المعاصرة في الغرب] ـ الدكتور عبد الرحمن بدوي ص ١٢ •

النفعية ـ التي اتاحت له تصوراته الحضارية اندفاعا محموما وراءها ، حجب امامه الرؤيا المضيئة وفوت عليه الوقفة التأملية الاصيلة •

في بحث لاستاذ في كلية الاداب بجامعة تورينو في شمال ايطاليا يدعى نيقولا اينيانو عنوانه « مفارقات الصناعة الفنية » يقول فيه(١) : « ان التقدم التكنيكي وفر للانسان اليسر والسهولة ، لكنه صرفه عن اعتبار الحياة الروحية ، وبهذا سلبه الميزة الحقيقية الوحيدة التي يمكنه ان يستخلصها من اليسر والسهولة •• الا وهي ان يستطيع تكريس نفسه لتربية ذاته على نحو افضل •

« ان التكنيك يوجه الانسان نحو كل ما هو كم ، وكتلة ، وامتداد ، وبهذا يربطه بتخارج المادة ، ويركز في هذا التخارج كل طاقاته ، مانعا اياه من التأمل في ذاته ومن الاستجابة الى دعوة اوغسطين الى التأمل في داخل الذات ، ولهذا السبب فانه بالتوجيه الذي يطبع به الحياة الانسانية فانه مضاد مباشرة للمبدأ الذي تقوم عليه الروحية التي هي طبيعة الانسان الحقة » •

ه يتصور اينيانو ان التكنيك هو الذي حرم الانسان

(١) نقلا عن المصدر السابق ـ ص ١٨ و١٩ و٢٠ •

من طبيعته الروحية ؟ • ان كان هذا ما يتصوره فاننا نجده يستدرك قائلا : « ولربما كانت كل الشرور المشار اليهـا ناشئة عن التكنيك ، بل عن عدم او قلة القبول للتكنيك ، ولهذا فان الدواء الوحيد الفعال يقوم في القبول الجذري الواضح التام لكل ما هو تكنيك بما هو عليه وبما ينبغي ان يكون عليه » •

ان المشكلة اساسا مشكلة الحضارة •• اما التكنولوجيا والتكنيك فلا يؤديان الى المشكلة الا بالقدر الذي تتحكم بهمـا يد الحضارة التي هي اتجاهات وقيم ونظم سياسية واقتصادية واجتماعية وصيغ اخلاقية للفرد والمجتمع معا • انظر مثلا هذه الوسائل اللاسلكية التي اقتحمت كل الجدران وهتكت كل الاسرار ، كذلك الاقمار الصناعية وطائرات الاستكشاف الدائمة الدوران التي لم تجعل حرمـة لأي شيء ، أليست صورة مخيفة لهذه العين الحضارية التي لا تعرف حرمة للانسان ولا احتراما لكرامة الآخرين • يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي في هذا الصدد(١) : « صحيح انه قضى على السرية والانفراد بالمستضعفين ، ولكنه في الوقت نفسه اعطي لمن يملكه ويتقنه اداة لا يمكن أي فرد ولا جماعة الدفاع عن نفسه بازائها ، والا فماذا يفعل فرد

(١) نفس المصدر السابق ـ ص ١٨ •

او جماعة محدودة امام اجهزة اعلام هائلة التنظيم ترهقه كل يوم بتوجيهات في خط معلوم ! ؟ » . ناهيك عن المأساة الانسانية التي يعانيها الزنوج في امريكا والتي يعرفها العالم جميعه .. اما الجشع الامبريالي الناهب لخيرات الشعوب ، فانه اتخذ في اطواره الجديدة ابشع الاتجاهات الاقتصادية النفعية التي تتنافى وابسط القيم الاخلاقية والانسانية .

أي تفكير هـذا الذي يقود خبراء السوق الاوروبية المشتركة ــ مثلا ــ للدعوة الى اتلاف مليون و٤٠٠ الف طن من الحليب والزبدة الى جانب كميات اخرى من المواد الزراعية .. ؟ ! أليس هو التفكير الرأسمالي القائم على منطق الحفاظ على الاسعار العالمية المرتفعة للمواد الغذائية. بل ان امريكا سبق لها اكثر من مرة ان القت بكميات فائقة تقدر بملايين الاطنان من الحبوب في البحر في الوقت الذي تجوع فيه الملايين من ابناء البلاد الافريقية والآسيوية التي تنهب خيراتها من قبل هذه الدولة الصناعية (المتمدنة) !..

امـا التآمر السياسي على الدول والشعوب الصغيرة والمستضعفة فقد مارسته ، وما زالت تمارسه ، معظم هذه الدول ، ولقـد لعبت كل مـن الاستخبارات الامريكية والانكليزية والفرنسية احط الادوار واقذرها .. وليست هولندا وايطاليا وغيرها من الدول الصناعية ببعيدة عـن

مسارح هذا النوع من الغزو والتخريب • ولكم افـادت الصهيونية واسرائيل من خدمات هذه الاجهزة البوليسية التي يسرت لهـا كثير مـن المهمات وفتحت امامهـا اكثر الابواب ! ••

ان ازمة الحضارة الغربية ــ في ابرز اوجهها ، هي ازمة النظام الراسمالي الذي قال عنه « اريك جونستون » الذي كان رئيسا للغرفـة التجارية الامريكية : « ان تعريـف الرأسمالية في المعجم اصبح ميتـا كالحيوانات المنقرضة • فالرأسمالية : حشد رأس المال •• نفوذ رأس المال حـين ينحصر في ايدي رجال قلائل • وقد عاش رجال الاعمال امدا طويلا في ظلال هذا التعريف •• وهو لا ينطبق الا على مضي مـن عهـود السلـب والنهب ، والسالبـين والمحتكرين ••

« ولقد كانت فترة رياستي للغرفة التجارية فترة تجربة ودراسة •• وقد اقتضاني عملي فيها ان اتجول في اقطار الارض فرأيت مصرع الرأسمالية بعينـي رأسي • وقـد اقتضاني عملي ايضا ان اتجول في امريكا مرات لا حصر لها ، فخرجت من رحلاتي كلها بهذه العبرة •• **امـا ان تساير المباديء الحرة • • واما ان تواجه خطر الانقراض** •• » (١) .

(١) ازمة الحرية في عالمنا ــ خالد محمد خالد ــ ص ١٢٣ و١٢٤ ــ مكتبة وهبة ١٩٦٤ .

ان هذا التدهور الذي تعانيه الحضارة المعاصرة ليس بسبب عدوانيتها وجشعها الموجهين الى شعوب العالم وحسب ، بل ان اسسها وتوجهاتها الداخلية لم تعد تصلح لادارة الكائن البشري وتنظيم حياته في داخل دوائرها وامتداداتها .

ان ملايين العاطلين واضراباتهم المتكررة والاضطهاد الذي يعانوه في كل من اوروبا الغربية وامريكا وبريطانيا واستراليا ليشير بوضوح الى هذا الفشل الذي منيت به هذه الحضارة ونظامها الاحتكاري القائم على القيم النفعية والفردية .. لقد تعرض كثير من المفكرين الغربيين الى هذه الازمة مثل « تورمان ارنولد » في كتابه « اسطورة الرأسمالية » والكاتب الامريكي « البرت أ. كان » في كتابه « مصرع الديموقراطية في العالم الجديد » و« انورين بيفان » النائب والوزير العمالي الاسبق في بريطانيا في كتابه « بدلا من الخوف » و« هنري نويل برايلز فورد » في كتابه « لماذا كانت الرأسمالية تعني الحرب » (١) وغيرهم كثيرون .

ان الازمة لتتخذ وجوها ومظاهر عديدة ، تجسدها ــ كذلك ــ مشكلة الادمان على المخدرات والضياع الذي يعانيه الفرد الغربي وهو يهرول في سوح حضارته التي

(١) المصدر السابق ــ ص ٥٣ ، ٦٠ و٦١ .

امعنت في غربته وضياعه لذا بدأ انسان الحضارة الاوروبية المعاصرة يتمرد على حضارته ، ومـــا حركات التمرد التي تشهدها القارتين الاوروبية والامريكية الا صورة فاضحة عن فشل هذه الحضارة . لقد استهدف تمرد الانسان هناك رفضه لكافة السلطات التقليدية القائمة في بنيان الحضـــارة الغربية المعاصرة : الدينية او السياسية او العائلية منها على حد سواء . حتى ان كاتبا مسنا مثل هربرت مركوزه يعبر كتابـه التحريضي « الانسان الاحادي البعــد » دستورا لحركات كثير من الشباب(١) .. انه يدعو في هذا الكتاب ـ وفي غيره ـ الى التحرر الجنسي والتخلص مما يسمى بـ « الايروس » وذلك بالرجوع الى الطبيعة والتلقائية وتجاوز تحكمات العقل والآلية في الحياة .. ومـــا رواية « الايروس اللذيذ » و« السيد الشاب داتي اخيرا و« أوه كلكتا » الا نماذج لتلك الافكار الرافضة . والغريب ان المسرحية الاخيرة « اوه كلكتا » يظهر خلالها المثلون عراة وهم يمارسون الجنس على المسرح وامام المشاهدين بحجة الفطرية والتجسيد التلقائي للحياة كتحد ورفض كما فرضته المدنية الصناعية(١) .

---

(١) عالم الفكر ـ المجلد الاول ـ العدد الثاني ـ ١٩٧٠ [الثورة الفكرية المعاصرة في الغرب] ص ١٢ .

(١) المصدر السابق ـ ص ١٤ .

ان هذا الرفض ـ الذي جاء بشكل منحرف ومجنون ـ انما هو في حقيقته تعبير فاجع عن ازمة الحضارة التي اختل بنيانها وعجزت عن اقامة عالم اجتماعي او فردي متوازن ٠

ان صراخ الجيل هناك قد غدى لافتات تعلن عن ملله من نظمه وتبرمه بمؤسساته وحضارته ٠ ولقد امتدت تحدياته ـ وبشكل بارز ـ عبر الاتجاهات السياسية التي اتخذت من الافكار السياسية المتطرفة كالماوية والتروتسكية انطلاقات لتحركاتها ، وكذلك السير خلف النزعات الجيفارية والكاسترویة كسبل للرفض والتمرد ، او في التمرد السلبي الذي يحاول فيه الجيل ـ وبأشكال ذكرنا بعضها ـ رفع احتجاجه بكل حدة وانعتاق ٠

ففي معرض قام باعداده المجمع القدمي للفنون الجميلة بنيويورك وبالتعاون مع مؤسسة « سميثسونيان » ومتحف الفن المعاصر ضم ابرز الاعمال التشكيلية التي انجزت في ميدان الملصقات الجدارية (البوستر) خلال السنوات الستينية والسبعينية في الولايات المتحدة الامريكية اطلق عليه اسم « ملامح عصر » ، تجسد الرفض الحضاري عبر رؤى وأفكار فنانين تشكيليين عايشوا تناقضات حضارتهم الاجتماعية والسياسية والاخلاقية كان منهم «اندي وارول» و« جاسبر جونز » و« فرانك ستيلا و« جورجيا اوكيف »

و« بين شان » و« نوردال » (١) وغيرهم .

ان هؤلاء الفنانين في « ملامح عصر » قد صدقوا التعبير عن هموم مواطنيهم داخل امريكا ــ بل واوروبا جميعها ــ بشكل رافض لصور الزيف والعنف والتفرقــة العنصرية وكوابيس ضياع الفرد وانزلاقه في جحيم الجنس والمخدرات والعبثية المطلقة التي افرزتها هذه الحضارة .

* * *

هذا ومما يلفت الانتباه ان انسان المعسكر الشرقي تجده هو الآخر بدا يشعر بالتبرم وفي حياته ثمة اتجاهات رافضة تتجسد بشكل اخص في جراة بعض المثقفين والكتاب الذين كثيرا ما نسمع عن النفي والهروب في صفوفهم . وقد كان آخر هــؤلاء ــ في روسيا ــ الكسندر سولجانستين الذي قيل(١) انه يعد كتابا بعنوان « ارخبيل الفولاع » يتحدث فيه عن النظام المركزي السوفيتي قد لا يكون لصالح هذا النظام ولا لصالح حضارته .

ان مظاهر الازمة الحضارية المعاصرة تتخذ شكلا آخر في البلدان الشيوعية ، وهذا نابع من كون هــذه المظاهر

(١) مجلة الاذاعة والتلفزيون ــ بغداد ــ العدد (١٩٨) ــ السنة السابعة ــ ١٩٧٦ .

(٢) مجلة الثقافة العربية ــ طرابلس ــ العدد ٤ ــ لا ننسى الاشارة الى ان العناصر الغربية والصهيونية استطاعت استمالة هذا الكاتب الى جانبها ، كما يتضح ذلك من تصريحاته الاخيرة المعادية . . (الكاتب) .

تتشكل عبر نظام وفلسفة اقتصادية وسياسية يختلف طابعها عن الفلسفة والنظام الرأسماليين •• لقد كان لفكرة « ديكتاتورية البروليتارية » التي جاء بها المفكر كارل ماركس أن منحت للفئة الحاكمة سلطات مطلقة دفعت المفكر الاشتراكي « لاسكي » ـ الذي بلغ تحمسه للتجربة الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي مدى بعيدا ، ان يقول في كتابه « تأملات في ثورات العصر » عن ستالين : « واصبح الاختلاف مع ستالين في وجهة النظر يعد اتجاها مناهضا للثورة •• وحدثت عمليات تطهير بالجملة •• ونفي بالجملة •• واعدام بالجملة •• والعالم كله يعرف **ان الانتخابات مهزلة ، فلا يمكن لمن يخالف سياسة الحزب ان يرشح . بل وحتى اوراق الانتخاب بدت وكانها قصائد مديح في ستالين ، وحرية الانتقال مقيدة بشكل خطير ، ويلقي القبض على الناس تحكما ، ويقضون سنوات طويلة في السجون . بل يعدمون دون محاكمة •• ولا يستطيع المواطنون السفر الى الخارج الا بعد استئذان الحكومة •• وقد ظهر مدى سلطات البوليس السري وبشاعتها في محاكمة ـ ياجودا ـ الذي كان رئيسا لهذا البوليس حتى لحظة القبض عليه ـ فضلا عن ممارسة نظام الرهائن وتشجيع الابناء الصغار على الوشاية بآبائهم»(١).**

وقد يعترض احد على ان ستالين لم يكن ليعكس حقيقة

---

(١) ازمة الحرية في عالمنا ـ خالد محمد خالد ـ ص ١٣٨ و١٣٩ ـ مكتبة وهبة ، ١٩٦٤ .

الفكر الماركسي واتجاهاته ، وانه كان يحمل طابعا شخصيا مميزا ودمويا .. الا ان هذا الاعتراض مردود اساسا ، باعتبار ان الرجل كان في الاتجاه العام لا يخرج عن كونه ماركسيا ينطلق من القيم المادية والفكر الطبقي ودكتاتورية البرونيتاريا التي تضمنتها الفلسفة الماركسية واكدت على وجوب تكريسها بقوة وعنف لا يعرفان التردد او التراجع مهما كلف الامر ..

ان دخول الاتحاد السوفيتي في حلف الفاشية ومن ثم مع هتلر عندما توسل ستالين ببعض اساليب الاخير في ضم « استونيا » و« لاتفيا » و«ليتوانيا » الى الاتحاد السوفيتي ، وكذلك رومانيا وبولندا التي اصليت بنيران الحرس الاحمر وبكل اسلحته الجوية والبحرية والبرية ليجد امتداداته في التدخل العسكري في جيكوسلوفاكيا .. وفي الجانب الخفي من « لقاءات الوفاق » مع الولايات المتحدة الامريكية حيث تقاسم النفوذ وتوزيع التمركزات الاستراتيجية في بعض مناطق العالم الحساسة .. كذلك تسوية المشاكل المعلقة بشكل يثير حفيظة وشكوك شعوب العالم نتيجة لطبيعة هذه التسويات التي تضع مصلحة هاتين الدولتين فوق المصالح والحقوق والطموحات التي تتطلع اليها هذه الشعوب المستضعفة .

ان ستالين اذن لم يكن اكثر من كونه ماركسيا صلبا لم يخرج عن الاتجاه العام والقيم التي ابدعها الفكر المادي الماركسي . لهذا فليس بغريب ان نشهد اعادة اعتباره في العهد

الحاضر على الرغم من ان هذا العهد قد تراجع عن كثير من النظريات الماركسية سواء في المجالات الاقتصادية او الدينية او الاجتماعية !..

ان الفلسفة الجوهريــة للحضارة الشيوعية التي تعتبر الاخلاق والقيم والموروثات الانسانية المعروفة ما هي الا وليد المرحلة المادية (وسائل الانتاج) التي تمر بها البشرية والتي تناحرها بوادر المرحلة التالية في صراع طبقي حتى انتصار الاخيرة . هذه الفلسفة التي تنحى هذا المنحى (دون اعتبار لقيم انسانية ثابتة او اخلاق جوهريــة وتوجيهات ربانية وروحية) قد تحكمت في عقلية ستالين وانتقلت الى خروشوف ومن جاء بعده ،بشكل او بآخر ، وانعكست في طبيعــة النظام السائــد والاتجاهات الاجتماعية والفكرية وغيرهــا .

لذا فانه ليس غريبا ان تظهر الاتجاهات الرافضة ، سيما بين المثقفين والكتــاب .. كما ان الميــل نحو الاستقلالية والحرية والاتجاهات الديموقراطية على النمط الاوروبي بدا بارزا لدى البعض من الرافضين . لقد مل اولئك عالمهم فراحوا يفتشون عن الخلاص ويتصورونه (وعــن وهم بالتأكيد) في ذلك العالم الغربي !.. ومــا حوادث المجر

وتشيكوسلوفاكيا الا صورا حادة لمثل ذلك الخروج او التمرد .

يقول الدكتور نور الدين محمد حاطوم(١) : ان الانسان الواعي بدأ يثور على حضارته وعلى ما خلقت من طرق ومناهج وقيم ومذاهب وتقنية ويحاول ان يقيمها ويجعل ما كان بالامس منها حقائق مقبولة ومعطيات مسلما بها ، موضع شك وتساؤل ، ولا غرو اذا وجدنا حضارة العصر تعاني أزمة بل أزمات ، وابرز هذه الازمات ثلاث : الازمة العقلية ، الازمة القومية ، أزمة الاشتراكية الماركسية : لقد حاولت الاتجاهات العقلية الحديثة ان تجعل من العقل رائدا لتسير على هداه وتوصلت الى الطريقة التي تجعل الانسان سيد الطبيعة وسهلت ظاهرا عليه سيطرته على العالم وسلوك حياته ، ولكنها في الوقت ذاته افقدته ، او تحاول ان تفقده ، **اسباب حياته وحريته** ، لقد اوجدت هذه الطريقة تكنوقراطيين يأخذون بالميكانيكيات الاقتصادية دون اعتبار كاف للعوامل البشرية ، وعقولا مجردة ومتحجرة يتحمل سيطرتها ويصبر عليها ، وقد بلغت هذه القوى كامل سيطرتها في الدول الدكتاتورية ، وتسللت من ابواب مختلفة

---

(١) عالم الفكر ـ المجلد الاول ـ العدد الثاني ـ ص ٣٢ و٣٣ ـ الكويت ١٩٧٠ .

الى النظم الديموقراطية •• والحاق القيم الانسانية والروحية بهؤلاء التكنوقراطيين والبوروقراطيين المتحكمين• ومن هنا يصرخ الضمير الواعي ان « العالم ليس عقلا » •

اما الازمة القومية(١) فقد تجلت في الحركات التي قامت في العالم وادت في النهاية الى تشكيل دول قوية حذت حذو بسمارك وكافور وهتلر وموسوليني وستالين • **بينما الازمة الثالثة نشات من تطبيق القواعد العقلانية على الحياة السياسية والاجتماعية ، وقد اظهرت التجربة الانسانية عيوبها وانقسامها على نفسها في الخلاف القائم اليوم بين الاتحاد السوفيتي والصين** ، بين نظام يريد ان يتحلل من قيوده ونظام ما زال في حداثة سنة وعز صرامته •• » •

انها ازمة الحضارة المعاصرة •

وانه ليبقى غيابا موجعا يؤكده ــ بشكل ظاهر ومستمر ــ هذا البؤس الحضاري الذي احال الكثير من نتاجات المدنية المعاصرة الى اوبئة باتت تهدد مستقبل الانسان ومصيره ، فمن الديناميت الى القنابل اليدوية الى الصواريخ ، فالصواريخ الموجهة ، فالصواريخ عابرة القارات ، فالقنابل الذرية والهيدروجينية ، ومن الغازات السامة الاخرى الى

(١) ان الشعور القومي المستند الى القاعدة الروحية والمتجه نحو الانفتاح والانسانية لا يمكن ان يقع فيما وقعت فيه الحركات القومية الشوفينية كالنازية والفاشية (الكاتب).

اشعة الموت •• الى غير ذلك من وسائل التدمير الرهيبة التي تتسابق نحو تطويرها جميع الدول الكبرى ــ والطامحة الى ان تكون كذلك • انكم لتسمعون كيف يلتهب السعير النووي في صحراء نيفادا مرة وفي الصحراء المنغولية مرة اخرى ، وفي المحيط الاطلسي مرة ثالثة •• والتنافس ماض على نحــو مفزع بحيث يعيد امامنـــا ــ وبشكل اوسع وافجع ــ صورة الانسان البدائي في صراعه الدامي ضد رفيقه الانسان • كما ونحس جميعا بالتوجس البالغ والخوف الدائم وقد باتت امامنا علائم الوصل واضحة بين فصائل المخلوقات المتوحشة الغاربة وبين قوى وامم معاصرة تملأ الدنيا ضخامة وضجيجا !••

وهنا تجيء طبيعية تلكم الاصوات الرافضة التي ما برحت تندد بحضارة العصر المادية وتصرخ من اجل التخلي عــن قيمها السائدة التي فقدت مبررات وجودها . كـــما تجـــيء ضرورية ورائعة تلكم الاصوات التي تنادي بالتوجه نحو خلق عالم انساني والبحث عن صيغة حضارية جديدة قوامها الفطرة والعدل والروح والسلام ••

يقول الدكتور الكسي كاريل ــ طبيب وعالم اجتماعي وحائز على جائزة نوبل ــ في كتابه الشهير « الانسان ذلك المجهول » : « ان الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف

صعب لانها لا تلائمنا ، فقد انشئت دون ايـة معرفـة بطبيعتنا » (١) •

ويكتب المفكر الفرنسي المعروف روجيه غـارودي في « البديل » : « هذا النفي ، هذا الرفض ، هذا التمرد من جانب الشبيبة ـ وهذا اليأس ايضا لان سبعة الآف مراهق بين السابعة عشرة والخامسة والعشرين ينتحرون سنويا في فرنسا ـ يزيح النقاب عن عمق ازمة حضارتنا وهو يساعدنا على وعي وضرورة اعادة النظر الجذريةفي نظامنا ومؤسساتنا (وقيمنا) وفي غايات مجتمعنا • ان الشبيبـة ترفض على جميع المستويات شرائعنا » (٢) •

اما العالم النفساني ماتيو تشابـل فيضع الاصبع على بعض مظاهر الجرح ـ وهو في صدد حديثه عـن القلق فيقول : « ليس القلـق رد فعل ، انما هو نتيجـة مران وممارسة فرضتها تعقيدات الحضارة وسوءاتها » (٣) •

---

(١) الانسان ذلك المجهول ـ ص ٣٨ ـ ترجمة شفيق اسعد فريد •

(٢) البديل ـ ص ٣١ ـ ترجمة جورج طرابيشي •

(٣) شفاء القلق ـ الدكتور ماتيو تشابل ـ ص ١٢ ـ تعريب د. عبد المنعم الزيادي •

والفنان العالمي تشارلي شابلن سبق له ان فضح في بعض افلامه حضارة الآلة وعمل على كشف سوءاتها بشكل بارع، سيما في رائعته « الازمنة الحديثة » التي قدمها في عام ١٩٣٥ • كان فلمه هذا ضحك متواصل على حضارة الغرب المادية وعلى اجهزة قسعها البوليسية ، كما انه تهكم لاذع يصور الاذلال والعبودية التي فرزتها الحضارة الحديثة •

وما سبق ان اثاره المفكر الالماني اسبنجلر في « أفول الغرب » وما وضعه ونادى به الفيلسوف البريطاني برتراند راسل وما كتبه كولن ولسن في « سقوط الحضارة » •• وما جاء في كتابات فرانز فانون واندريه بوفر وغيرهم من المفكرين والفلاسفة والعلماء والفنانين ، ليؤكد جميعه بدء الافلاس الحضاري واعلان واضح يكشف عن أزمة الحضارة • بل ان نزعات اللامعقول والاتجاهات الوجودية والهيبية في الفكر والسلوك والادب والفن وصور التمرد والعنف ونحوها ما هي الا انعكاسات تأزمية وافرازات يتقيئها الانسان الغربي الذي يعيش عذاب حضارته ويقف متشنجا في فم المأساة ••

ان احد ابطال قصص جان بول سارتر في كتابه «الغثيان» يعكس هذا الشعور بالغربة والضياع والرغبة نحو الخلاص بقوله : « تأخذني الرغبة للسفر الى مكان اجد فيه مكاني•• ولكني لم اجد لي مكانا في العالم » •

يا له من بحث مزمن عن الخلاص ..

ولكن .. لا خلاص !..

انه الانتظار الموحش لـ « جودو » الذي لم يجيء...(١)

وانه الفرح المسلوخ عن جلد الوجوه ، والعالم المجهد الذي يهرول لاهثا وراء السعادة الهاربة .

وانه التضاؤول المعنوي الذي يختفي خلاله الانسان في صفيحة من القمامة ثم تبتلعه الارض حتى لا يرى منه الا الرأس ـ كما تقوله مسرحية « الايام السعيدة ! » ..

وانه « المجتمع اللامعقول الذي لا غاية له .. والمنفصل عن جذوره الدينية وتقاليده .. الذي يكون فيه المرء ضائعا .. ولا معنى لكل ما يصدر عنه ، ولا فائدة ترجى فيه » ـ كما يقول يوجين يونيسكو .

انها ازمة الانسان المادي المعاصر .

---

(١) «بانتظار جودو» « Waiting for Godot » مسرحية مشهورة لابرز رواد مسرح اللامعقول ـ صموئيل بيكيت ، تعكس شخصيات لا معقولة لا تفعل من اول المسرحية الى آخرها سوى الانتظار لجودو المنتظر الذي لم يجيء في النهاية ..

امـــا حين يحرر « لويس باولز » رئيس تحرير مجـــلة « بلانيت » : [رسالة للناس السعداء ومن حقهم أن يكونوا كذلك] ـ مستوحيا ذلك (وعن وهم) مـــن الحضارة الحديثة ، فان ردود الفعل ازاءه كانت عنيفة لدرجة تدفع « بول سورا » ان يوجه [رسالة الى لويس باولز حول الناس القلقين والذين يحـــق لهم ان يكونوا كذلـــك] تجيء ـ هذه الرسالة بمائتي صفحة وبشكل معاكس ، كما يتضح ذلك من عنوانها المذكور • فبول سورا « لا يجاري خصمه في ما ذهب اليه من ضرورة « النشوة » بحضارة العصر ، بل يفضح ما تنطوي عليه هذه الحضارة من مشاكل مستعصية لم يسبق للبشر ان عانوها • ان التفاؤل تجاهها هو تفاؤل ابله لا ركيزة له •• انه يرتعب مـــن الكوارث الاخلاقية والمادية التي ولدها هذا العصر ، ومنها العيش في ضواحي المدن القذرة البائسة للعمال والفقراء ، والضجيج والسعي اليومي الى ما يشبه الكفاف ، وكثرة انتاج السلاح وبيعه من الشعوب الجائعة حتى يذبح بعضها بعضا ، ومنها انتشار سلطة البوليس وحضورها الرهيب في كل مكان ، والادب العاهر الرخيص الضارب على احط اوتار الحس والنظر الى المال وكأنه الينبوع الوحيد للسعادة والكرامة ••

« سورا في كتابـــه لا يعظ ولكنـــه ينظر الى الامور برصانة ، لا يستخف بالمشاكل ، بل يدعو الى وعيها بعمق

في سبيل تخليص الانسان من قبضة الحضارة الحديثة ..»(١)

ان سورا واحد من عشرات الشهود الواعين لمأساة هذه الحضارة المادية الشوهاء التي باتت تطحن الكرامة وتغتال النقـاء ..

لقـد بات محتما علينـا ان نجعل أي تقييم نطرحه في الحضارة ــ أية حضارة ــ محاطا بالحذر البالغ من مظاهر « الشكلية » و« المادية » التي تحاصرنا اليوم في كل مكان، سيما وقد اضحى جليا ان « الحديد » و« الاتيكيت » لم يعودا قادرين على اثبات القيمة الانسانية الحقيقية .. كما لم يعد بمقدور العلم والتكنولوجيا والتطور الحياتي المـائل امامنا ان تحرر الانسان او تستكشف انسانيته وتستظهر بالضرورة او النتيجة نبله او تأكيد الخط السلوكي والمنهجي المستقيم في هذه الحياة .

اذن هي الازمة الحضارية المعاصرة

ولكن ..

---

(١) مجلة الاسبوع العربي ــ العدد ٦٧١ ــ ١٩٧٢ .

هل من سبيل نحو خلاص حضاري ؟

انه لتساؤل اثبتت كل المحاولات عبر التأريخ الغابر والمعاصر صعوبة الاجابة عليه ، فلقد كانت وما زالت الاجوبة التي طرحت ـ والمطروحة حاليا ، قاصرة عن اعطاء الاجابة المنقذة الفعالة التي تقدم ـ باثبات ـ برنامج السعادة الحقيقي وتحمل خشبة خلاص هذا العالم الآسي •

ان عجز الانسان هنا ـ في التحليل النهائي ـ ليس بالامر المعيب ابدا ، انه نابع من كونه مخلوقا لم يوهب سر خلق النظام الاجتماعي الاصلح (أي جوهر الحضارة) بذاته • وهذه حقيقة باقية ومغروسة في اعيننا على الرغم من تجاهلها لدى الكثيرين على مر العصور • لقد كانت وما زالت عقدة الحياة الكبرى تكمن وراء هذا التجاهل المزمن الخطير ••

ان هزالة المعرفة في مجال « علم الانسان » بما يشتمل عليه الانسان من طبائع وخصائص وابعاد ونوازع وتفاصيل في شتى مجالات تكوينه وحياته ، حقيقة بات من الصعب نكرانها او التغاضي عنها • ان علماء ومفكرين كبارا راحوا

يصرحون بها بشكل واضح •

خذ مثلا الدكتور الكسي كاريل يؤكد بأن : « •• التقدم البطيء في معرفة بني الانسان ـ اذا ما قورن بالتقدم الرائع في علوم الطبيعة والفلك والكيمياء والميكانيكيا ، يعزى الى حاجة اجدادنا الى وقت الفراغ ، **والى تعقد الموضوع ، والى تركيب عقولنا ••**

هذه العقبات اساسية • وليس هناك امل في تذليلها ، وسيظل التغلب عليها شاقا يستلزم جهودا مضنية •••

« ان معرفة انفسنا لن تصل ابدا الى تلك المرتبة من البساطة المعبرة ، والتجرد ، والجمال التي بلغها علم المادة، اذ ليس من المحتمل ان تختفي العناصر التي احرزت علم الانسان •• فعلينا ان ندرك بوضوح ان « علم الانسان » هو اصعب العلوم جميعا » (١) •

ومن هذه الشهادة التي يدلي بها كاريل ، **يرى البعض من خلالها بروز حقيقتين جوهريتين قائمتين :**

اولاهما : حينما يكون الانسان بطبيعته جاهلا بحقيقة

---

(١) الانسان ذلك المجهول ـ الكسي كاريل ـ ص ١٨ و٢٣ •

ذاته فان الخالق تعالى لم يدعه يصنع منهج حياته الاساس ، بما فيه من نظم وقوانين واتجاهات اجتماعية مختلفة .. لان ذلك يقتضي منه علما كاملا وشاملا لا بحقيقة الانسان وحدها ولكن كذلك بحقيقة الكون والحياة ، ثم بحقيقة القوة الكبرى المدبرة لهذا الكون وما فيه ومن فيه ..

وثانيهما : ان الانسان ما برح يواصل غروره وعناده اللامجدي في وضع التفسيرات المتعجرفة وسن الشرائع والنظم الاساسية في حياة الناس دون ان يصل الى نتيجة غير ما هو معروف عليه من قصور في المناهج وركام في التصورات وتوغل في المظالم والدروب الوعرة ..

ان التصور الرباني الذي منّ به الخالق على البشر ودعاهم للتوجه اليه ـ عبر رسالاته ـ اراد بذلك تعالى ان يوفر عليهم همّ انشائه اساسا وان يمل عنهم معاناة الكد فيه ، لذا فان تبديد الطاقة في هذا المجال الذي لم يهبهم الله دليله ولا اداته ، دون التفرغ لتلقي هبة التصور الرباني والعمل على ادراكها والتكييف بموجبها والمعاناة والابداع من خلالها ، معناة الاستمرار في الخبط والمتاه » .

ان الانسان سيظل يبحث عن ابواب خلاصه عبر ما يطرحه من قيم وتصورات وما يتوصل اليه من افكار

واتجاهات ، غير ان النتيجة تبقى دونما خلاص ، وانه لسوف يظل عاجزا عن طرح الاجابة المنقذة حقا ، كما ستتسع دوائر قلقه وعذاباته وتتعمق فجوات مشاكله وهمومه •• وسيبقى كذلك وهو في هذا الاتجاه المنشد الى حبال « الغرائزية » و« المادية » و« المحدودية العقلية » والمأسور بدنيا مبتكراته وعالمه المادي النفعي السائر نحو التهالك والجنون ••

ان البحث عن صيغة حضارية لعالم اليوم ، تعتمد الاساسين الروحي والمادي منطلقا وصبغة وبناء ، وتعي مركزية الانسان وتدرك غاية وجوده الكوني وتنتهج فلسفة **مؤمنة واعية منفتحة ينبثق عنها النظام الاجتماعي الذي يلبي بواقعية نداءات (الخبز) و(الروح) و(الكرامة)** ، ثم يمنح **حق (الامن) و(الحرية) و(الحياة الكريمة)** ، فيحمل بالتالي ، وبصدق ، مشاكل الناس وهموم هذا العالم ، لهو الهاجس الذي ينتاب الطيبين ، وهو الامل الذي يراود الواعين الحقيقيين •

ويبقى امل •• امل الحضارة الانسانية التي تدفع بالمدنية نحو الخير والعطاء والازدهار العميم • وانه لأمل وما زال ، تذوب عند اطلالة موعده الملايين ممن يتحرقون شوقا الى عالم متوازن تسوده المحبة والروح ويحكمه منطق الحق والعدل والخير والجمال •

موضوعات الكتاب

صفحة